# التقارير

## امتداد مصر الآسيوي
## قراءة في «شخصية مصر» لجَمال حِمدان

عبد الرحمن عبد الفتاح
الهيئة العامة للاستعلامات

**الملخص:**

استطاع المفكر الكبير «جمال حمدان»، في موسوعته (شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان) أن يعتمد علي نهج رئيسي ،فقد استطاع من خلال قراءة تاريخية متعمقة ودراسة جغرافية رصينة أن يُنجز عملاً موسوعياً، قادراً على استيعاب الواقع في مصر إلى الآن، فبعد حوالي نصف قرن، نعود إلى موسوعة «شخصية مصر» حتى يُمكننا فهم الحاضر وتفسيره.،حيث تتضح قدرته على ربط الجغرافيا بالتاريخ، وإضفاء الطابع الاستراتيجي على أفكاره وتحليلاته، الأمر الذي منحها العمر المديد، والقدرة على التعايش مع تقلبات السياسة بعد مرور كل هذه الأعوام.

ومن ثم يطرح التقرير رؤية المفكر المصري الراحل جمال حمدان علي عُمق الوجود المصري في آسيا، على ذات الدرجة التي يتمتع بها في أفريقيا، إذ لم يعُد الحديث عن العُمق المصري في آسيا مُعتمداً على ذلك «السؤال» الذي طرحه بعض الكتَاب والعلماء الغربيين عمّا إذا كانت سيناء أفريقية أم آسيوية؟، والذي وصفه العلامة الراحل جمال حمدان، وصف ذلك «السؤال» في موسوعته الخالدة بـ «السافر والمُريب»، وإن طرح البعض منّا التساؤل نفسه دون وعيٍ فكريّ، وبلا نقدٍ علميٍّ كاف، لكن واقع الأمر علمياً أن المشكلة مُفتعلة، اصطنعها الاستعمار تبريراً لأغراضٍ سياسية.

Abstract :

The great thinker Jamal Hamdan, in his encyclopedia (Egypt's character is a study in the genius of the place), was able to rely on a major approach. Through an in-depth historical reading and a sober geographical study, he was able to perform encyclopedic work, capable of accommodating the reality in Egypt until now. strategy ", in which he is able to link geography to history, strategize his ideas and analyses, which has given her a long life, and the ability to live with policy fluctuations after all these years.

The report then puts forward the vision of the late Egyptian thinker Jamal Hamdan Ali to deepen the Egyptian presence in Asia, to the same degree that he enjoys in Africa. The talk about the Egyptian depth in Asia no longer relies on that "question" posed by some Western writers and scientists as to whether Sinai is African or Asian? Described by the late label Jamal Hamdan, he described that "question" in his timeless encyclopedia as "blatant and suspicious", although some of us questioned ourselves without intellectual consciousness and without sufficient scientific criticism, but it is a scientific fact that the problem is contrived, made by colonialism to justify political purposes.

**مقدمة:**

في موسوعته الخالدة (شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان) للعلّامة الراحل جَمال حِمدان، والتي صدرت في أربعة مجلدات طبعة مؤسسة دار الهلال، جاء الفصل العاشر من الجزء الأول ـ الذي يتكون من ثلاثة أبواب وأربعة عشر فصلاً ـ بعنوان (سيناء) من الصفحة (٥٣٩) إلى الصفحة (٦١٢) أي في نحو (٧٣) صفحة من (٣٦٠٢) صفحة هي إجمالي عدد صفحات الموسوعة بأجزائها الأربعة، مُوزعةً على النحو التالي: الجزء الأول (٨٤١) صفحة، الجزء الثاني (١٠١٨) صفحة ويضم أربعة أبواب وأربعة عشر فصلاً، الجزء الثالث (٩٩٩) صفحة ويضم بابان وثمانية فصول، والجزء الرابع والأخير (٧٤٤) صفحة ويضم ثلاثة أبواب وسبعة فصول.

**سيناء أفريقية أم آسيوية؟**

«هل تُمثل سيناء البُعد الآسيوي في موسوعة شخصية مصر»، كانت تلك هي الفرضية التي يبحثها هذا التقرير، وقد أوردها العلّامة الراحل في موسوعته الشاملة بصيغة أخرى طرحها آخرون وهي: هل سيناء أفريقية أم آسيوية؟، ويجيب: إن السؤال عن «أفريقية أم آسيوية» سيناء (محسومُ علمياً، ولا مبرر للحيرة أو التناقض، فسيناء، على المستوى الطبيعي، أفريقية أكثر مما هي آسيوية، ومصرية أكثر وأكثر منها عربية، كل هذا، لاحِظ، على المستوى الطبيعي في الجيولوجيا والجغرافيا والأرض، أما في التاريخ فتلك قصة اخرى..).

يضيف: (كل ما يمكن أن نقوله هنا هو أن مصر كما هي في أفريفيا بالجغرافيا فإنها في آسيا بالتاريخ، إن مصر تزداد آسيويةً بالضرورة كلَّما اتجهنا شمالاً بشرق، فالصحراء الشرقية أكثر آسيويةً إلى حدٍ ما من الغربية، وسيناء أكثر نوعاً من الإثنتين، ولكنهما في النهاية لا تزيد آسيويةً ولا تقل أفريقيةً عن مصر، إنها بكل بساطة جزء لا يتجزأ من مصر، كما تذهب تذهب).

تباينت الرؤى حول آسيوية أو أفريفية سيناء، كما يوضح المؤلف في موسوعته وتفصيل ذلك، أن بعض الكتَاب والعلماء الغربيين لأمرٍ ما، يُلّحون منذ وقتٍ مبكر في القرن الماضي على طرح هذا السؤال إلحاحاً «سافراً ومريباً»، وللأسف ـ

يقول الكاتب ـ أن البعض منّا طرح التساؤل نفسه دون وعي فكري، وبلا نقد علمي كاف، لكن واقع الأمر علمياً أن المشكلة مفتعلة والقضية مزيفة، اصطنعها الإستعمار تمهيداً وتبريراً فكرياً لأغراضٍ سياسيةٍ بعيدةٍ ومُبيتةٍ تكشفت فيما بعد، أما الحقيقة الموضوعية في الجدل كله فمسئولية العلم، والعلم الجغرافي وحده.

ولأن سيناء كشبه جزيرة يطوقها خليجان متعمقان (خليج العقبة وخليج السويس) وتنفصل جزئياً عن أرض مصر، وتتصل بالدرجة نفسها باليابس الآسيوي، فقد ألحقها البعض بالجانب الآسيوي أو العربي.. وقد تبدو سيناء وكأنها نتوء بارز واستمرار مصغر لكتلة الجزيرة العربية، لكن الحقيقة مختلفة عن ذلك كثيراً، فالواقع أن سيناء امتداد أو تصغير لصحراء مصر الشرقية أكثر مما هي امتداد أو تصغير للجزيرة العربية، وهي أقرب في الجيولوجيا والطبوغرافيا والمناخ والمائية والنبات إلى الأولى منها إلى الثانية.

ينبع الخطأ في إتباع سيناء جيولوجياً أو جغرافياً أو طبيعياً للجزيرة العربية دون مصر من انكسار عام في الرؤية العلمية، فمصر والجزيرة كلتاهما نظائر جيولوجية على ضلعي الأخدود الأفريقي بعد أن كانتا أصلاً وحدة جيولوجية واحدة في الكتلة العربية ـ النوبية الصلبة، فالتشابه الجيولوجي مشترك بين الجميع، سيناء ومصر والجزيرة العربية.

وسيناء في هذا هي العُقدة الجيولوجية مثلما هي العُقدة الجغرافية بين الجانبين، إلا أنها دائماً أقرب جيولوجياً إلى صحراء مصر الشرقية مثلما هي أدخل جغرافياً في مصر الأم عموماً.. الخريطة توضح على الفور أن سيناء هي المُتمم الطبيعي لجسم مصر الذي يُكمل مربعها المُنتظم في أقصى الشمال الشرقي، تماماً كما تُكمل آسيا الصغرى مثلث قارة أوربا في أقصى جنوبها الشرقي رغم انها تخرج ناتئة من كتلة القارة الآسيوية الكبرى.

**بين الشكل والواقع**

سيناء ٦١ ألف كيلومتر مربع، حوالي ٦٪ أو ١ على ١٦ من مساحة مصر، أو نحو ثلاثة أمثال الدلتا، تبدو على الخريطة كمثلث منتظم بدرجةٍ أو بأخرى،

ارتفاعه من رأس برون حتى رأس محمد نحو ٣٨٠ ـ ٣٩٠ كم، وأقصى عرضه بين السويس والعقبة نحو ٢١٠ كم، أي أن طوله نحو ضِعف عرضه إلا قليلاً.

والأدق أنه مثلث مائل قليلاً في الجنوب، يرتكز على قاعدة عريضة كالمستطيل تقريباً في الشمال، المستطيل الشمالي أو «شمال سيناء» أضلاعه: قناة السويس غرباً، والحدود السياسية شرقاً مع فلسطين شرقاً، ثم ساحل المتوسط شمالاً .. أما المثلث الجنوبي أو «جنوب سيناء» فرأسه عند رأس محمد جنوب خط عرض ٢٨ بقليل، وارتفاعه زهاء ٢٣٠كم، أما ضلعاه فخليجا السويس والعقبة، الأول طوله ٢٧٥كم، والثاني ١٨٠كم.

بهذا الشكل تبدو سيناء، بكتلتها المندمجة المكتنزة، كثقل مُعلّق أو كسلةٍ مدلّاة على كتف مصر الشرقي في أقصى الشمال لا تلتحم بها إلا بواسطة برزخ السويس، ولذلك فقد ألفنا أن ننظر إلى سيناء على أنها تمثل أقصى شمال شرق مصر..

بهذا الشكل أيضاً، تأتي سيناء فريدةً بين أقاليم مصر، في وضعياتها الطبيعية، إنها شبه الجزيرة الكبيرة المُتفردة الوحيدة في يابس مصر القاري المُندمج الرصيف المُتصل بلا انقطاع، فليس في مصر منطقة لها ثلاثة سواحل مُحيطة، مُحدقة، ومُطوقة سوى سيناء (قناة السويس حوّلت هذه السواحل الثلاثة، أو الساحلين المنفصلين في الشمال والجنوب، إلى ساحلٍ واحد متصل يلف شبه الجزيرة من جميع الجهات إلا على حدود فلسطين).

من ثم، فإن سيناء هي أكثر منطقة في مصر، يتداخل فيها اليابس والماء بشدة، على التقاطع وفي أكثر من اتجاه، إنها بسهولةٍ مطلقةٍ أكثر أقاليم مصر «جزريةً» وأقلّها قاريّةً، النقيض المُطلق لمنطقة العوينات على الركن المقابل تماماً في أقصى الجنوب الغربي.

**وَجه سيناء**

سيناء عقدة جيولوجية بارزة، فهي أول وآخر جزيرة في صميم بحر الأخدود، وسيناء (الكتلة الجنوبية) تحديداً هي وحدها الكتلة القديمة التي يكتنفها الإنكسار الأخدودي من الجانبين وعلى الضلعين، خليج العقبة وخليج السويس،

تتخندق بينهما كالجزيرة تقريباً، وتتمترس خلفهما كالقلعة الشمّاء.

وفي هذا تختلف سيناء عن سائر الأخدود الأفريقي من حيث أنها يابس واحد بين بحرين، وهو بحر واحد بين يابسين.. حتى في جيولوجيتها الإقليمية، تكاد سيناء تختزل جيولوجية مصر كلها تقريباً، بل وتنفرد ببعضٍ من أنواع وعصور التكوينات التي لا تُعرف في بقية أجزاء مصر، كذلك من حيث ليثولوجية أو مورفولوجية الصحاري، يجتمع في سيناء بنسبٍ ممثلة معقولة نوع الصحراء الصخرية التي تسود الصحراء الشرقية، ونوع الصحراء الرملية الكُثيبية التي تميز الصحراء الغربية بالإضافة إلى الصحراء الحصوية العامة والمشتركة.

بالمثل جغرافياً، فإن سيناء تصغير مثلما هي امتداد للصحراء الشرقية، لكن سيناء فضلاً عن ذلك هي «المُتصل» أو «المفصّلة» أو العُقدة الطبيعية التي تلحم أفريقيا بآسيا، ومصر عموماً بالمشرق العربي مباشرةً، بل إن فيها تجتمع مصر والشام والجزيرة العربية جيولوجياً وتضاريسياً ، فالسهل الساحلي إنما هو استمرار لسهول فلسطين، والهضبة الوسطى امتداد مباشر لهضبة صحراء أو بادية الشام، أما كتلة الجبال الجنوبية فعقدة الإلتحام المشتركة بين جبال حافتي الأخدود الإنكساريتين في حوض النيل والجزيرة العربية.

**أقاليم سيناء**

سيناء على الخريطة وفي الحقيقة ثُلاثية في مُثلث، كتلة جبلية ـ هضبية ـ سهلية، وتبدو شبه الجزيرة في مجموعها كتلة رصيفة مكتنزة من المرتفعات تترك سهولاً واسعة نسبياً في الشمال، مقابل سهل ساحلي ضيق نوعاً في الغرب.

جغرافياً، تنقسم سيناء بسهولة إلى ثلاثة أقاليم طبيعية او فيزيوغرافية تتوالى من الشمال إلى الجنوب: سهول واسعة تُعرف اصطلاحاً بسهول العريش وأحياناً بالصحراء، هضبة وسطى يُطلق عليها تعميماً هضبة التيه، ثم أخيراً كتلة جبلية تُسمى عموماً جبل الطور، أو على الترتيب: إقليم السهول، إقليم الهضاب، إقليم الجبال.

**الخليجان**

لا تكتمل لنا صورة سيناء بغير ذكر الخليجين، فلئن هُم بَدَيَا كالتوأمين البحريين حول سيناء، فإن الفروق بينهما جذرية، إلا أن يكون غياب الجزر بصورةٍ لافتةٍ هو وجه الشبه الوحيد بينهما، فعدا اختلاف المحور إلى حد التعامد والتقاطع، يظهر على الخريطة بوضوح كيف يمتاز ساحل خليج العقبة بالإنتظام الشديد في اتجاهه الواحد، بينما تتعدد محاور ساحل خليج السويس حيث يغير اتجاهه في الوسط إلى الإتجاه الشمالي ـ الجنوبي نصاً، وبالتالي تكثر فيه الرؤوس البارزة ابتداءً من رأس مسلة حتى رأس بلاعيم ، مما لا نظير له على ساحل العقبة.

كذلك يمتاز خليج السويس بسهل ساحلي واسع نسبياً على كلا شاطئيه، بينما يكاد يختفي السهل الساحلي تماماً على كلا شاطئي خليج العقبة، وبينما يبدو حائط الجبال متقارب الإرتفاع على جانبي «العقبة»، يزيد ارتفاع الحائط الجبلي في غرب سيناء كثيراً على نظيره على ساحل خليج السويس، الذي تكثر فيه أيضاً الفتحات المنخفضة الواسعة نسبياً خاصةً فتحة وادي عربة الفسيحة، بعكس حائط غرب سيناء شبه المُصمت، ويبرز هذا بصورةٍ مؤثرةٍ لمن يقف في وسط الخليج، حيث يروعه فارق الإرتفاع والإستمرارية على الجانب الأيمن والإنخفاض والإنقطاع النسبيين على الجانب الأيسر.

فإذا ما نزلنا نهائياً من ساحل كل خليج إلى مياهه، فإن أول فارق هو أن «السويس» أعرض بكثير كما هو أطول، السويس طوله ٢٧٥كم، أما «العقبة» فطوله ١٨٠ كم، أما عرضاً فـ «السويس» في أقصى اتساعه يعادل ضِعف «العقبة» في أقصى اتساعه، بل إن «السويس» في أضيقه يفوق «العقبة» في أوسعه.. والطريف أن الخليجين يتعارضان في العرض، فحيث يتسع الواحد يضيق الآخر، والعكس، وفي النهاية فإن خليج السويس يوشك أن يُعادل ضِعف خليج العقبة مساحةً.

كذلك فإن خليج السويس في شكله الجغرافي العام أسطواني مستطيل أكثر، لا يقل اتساع طرفيه كثيراً عن اتساعه العام، أما «العقبة» فرغم انه أكثر تجانساً

في عرضه العام، فإنه يَضيق، ويَدِق بوضوح عند الطرفين في اختناقين كالعنق النحيل ، ولذا فإن «السويس» خليج بحري أكثر انفتاحاً وانفساحاً، في حين يبدو «العقبة» كبحر شبه مُغلق أو كشبه بحيرة مقتطعة، ويتلخص هذا كله في الشكل العام، حيث يرسم خليج العقبة صورة أُذن الأرنب الطويلة تقريباً، بينما «السويس» أقرب إلى ذراع القط الممدودة.

الأهم من الشكل والأخطر، فارق البنية والتركيب الجيولوجي، فـ «السويس» خليج رصيفي متوسط العمق بل ضحل، لا يزيد عن ٧٠ متراً بالكاد، اما «العقبة» فأعمق بكثير جداً، أخدودي جداً، نحو ١٠٠٠ متر عمقاً، أي أكثر من عشرة الأمثال، ولعلّه في ذلك، حسب رشدي سعيد، (أعمق بحار الأرض بالنسبة لاتساعه).

ومن هنا فلا ريب أن حجم خليج العقبة أضعاف حجم خليج السويس.. وسبب هذا الإختلاف وغيره فهو التاريخ الجيولوجي عموماً والعمر الجيولوجي خصوصاً... والخلاصة أن «السويس» خليج قديم جداً، بالغ العمر، ومن ثم فقد امتلأ طويلاً بالرواسب البحرية المتراكمة السميكة، فارتفع قاعه كثيراً، كما بُنيت حواشيه الساحلية في شكل سهل ساحلي واسع إلى حدٍ أو آخر.

أما «العقبة» فخليج حديث النشاة جداً، تأخر ظهوره كأخدود، وظل يابساً إلى عصورٍ حديثةٍ للغاية، فهو ابن البلايستوسين، أي لم يُعمر إلا منذ نحو مليون سنة، ولهذا تخلو جوانبه من رواسب الميوسين والبليوسين التي تُعد علامة مميزة على خليج السويس بضفتيه.

كل هذه الفروق التركيبية الجيولوجية كلها تفسر أيضاً فارق الثروة المعدنية، حيث «السويس» خليج بترول غني أرضاً وماءً، بينما أن «العقبة» خليج «جاف» بترولياً، ولا شك أن هذا الفارق يفسر بعض مظاهر الإختلافات البشرية والعمرانية على شواطئ الخليجين وفي مياههما، ولو أن الفارق التاريخي والبشري الحاسم إنما أتى ـ يقيناً ـ مِن تَفرُد خليج السويس بقناة ملاحة الشرق ـ الغرب العظمى، فكان شرياناً عالمياً، حيث ظل «العقبة» منزوياً كزقاقٍ مغلق مظلم شبه مهجور، وإن بدأ يتحول مؤخراً إلى حارة أو عطفة محلية لأسباب طارئة

عابرة غالباً، ولنا أن نضيف أن «السويس» خليج مصري كله، بينما أن «العقبة»: نصف مصري ـ نصف سعودي أساساً؟.

**سيناء في الإستراتيجية والسياسة**

إن تكن مصر ذات أطول تاريخ حضاري في العالم، فإن لسيناء أطول سجل عسكري معروف في التاريخ.. ومن هنا فإن سيناء أهم وأخطر مدخل لمصر على الإطلاق.. وبغير مبالغة فسيناء أيضاً مدخل قارة برمتها، مثلما هي مدخل مصر.

سيناء وحدة جيوستيراتيجية واحدة، لكل جزءٍ منها قيمته الإستراتيجية الحيوية، فالمثلث الجنوبي بتعمقه وبروزه نحو الجنوب يُعطي، خاصةً في عصر الطيران، نقط ارتكاز للوثوب على ساحل البحر الأحمر بالأسطول البحري او بالطيران، وتتركز القيمة الإستراتيجية للمثلث الجنوبي بصورة بارزة وبصفةٍ مباشرة في سواحله عامةً ورأس شبه الجزيرة عند شرم الشيخ خاصةً.

والواقع أن ساحليْ جنوب سيناء بسهليهما الضيقين هما محور الحركة البرية الأساسيان على ضلعها، كما أن التقائهما واجتماعهما عند شرم الشيخ هو مما يضاعف من أهمية شرم الشبخ.

تُعدُ شرم الشيخ المفتاح الإستراتيجي لكل المثلث الجنوبي، فهي وحدها التي تتحكم تماماً في كل خليج العقبة دخولاً وخروجاً.. وإذا كانت هذه هي القيمة الإستراتيجية الحيوية للمثلث الجنوبي من سيناء، فإن قيمة المستطيل الشمالي بالذات فائقة، إنه مركز الثقل الإستراتيجي في كل سيناء، بموقعه هو «مقدم» الإقليم، وبتضاريسه المعتدلة وبموارد مياهه المعقولة، هو «الطريق»، طريق الحرب كما هو طريق التجارة.. إن مَن يسيطر على المستطيل الشمالي يتحكم أوتوماتيكياً في المثلث الجنوبي، وبالتالي يتحكم في سيناء كلها.

**مصرية سيناء**

هنا يعود الكاتب مرةً ثانية، ليتناول البعد الآسيوي في مصر، أو الإمتداد المصري في آسيا، ليؤكد بدايةً أن سيناء جغرافياً وتاريخياً جزء لا يتجزأ ولم يتجزأ قط من صميم التراب الوطني والوطن الأب، فسيناء مصرية كما أن أسوان

والبراري والسلوم وعلبة والواحات والعوينات مصرية، كما أن أسيوط وطنطا مصرية، بل كما أن القاهرة مصرية..

أما السؤال الأكاديمي الذي يُثار أحياناً عن سيناء آسيوية ام أفريقية؟، فلا يعني شيئاً كما سبق أن ذكرنا، من الناحية الجيوبوليتيكية، ببساطة لأن مصر نفسها كانت دائماً في آسيا بالتاريخ كما هي في أفريقيا بالجغرافيا، أما أن سيناء تبرز كوحدة متميزة أرضياً إلى حد ما بانحصارها بين ذراعي خليجي السويس والعقبة، فلا يجعلها في آسيا أكثر مما هي في أفريقيا.

بل إننا بهذا المنطق الفيزيوغرافي نفسه، إن صح مثله، أحرى بأن نضع الشام كله في أفريقيا أكثر مما هو في آسيا، فهو إنما يتبع تكوين الأخدود الأفريقي العظيم الذي يبدأ في قلب أفريقيا فلا ينتهي إلا في جنوب طوروس، شاملاً مِن بين ما يشمل البحر الأحمر بذراعيه اللتين تحتضنان سيناء.

أبعد من هذا، نستطيع بالمنطق نفسه أن نعتبر شبه الجزيرة العربية نفسها خارج آسيا كما هي خارج أفريقيا، فهي بذراعي البحر الأحمر والخليج العربي ثم بحر العرب كسيناء ولكن على تكبير: جيب ضخم فارغ آخر من الصحراء والجبال «يسقط» بين القارتين الهائلتين أكثر حتى مما «يقع» على هوامشهما أو ضلوعهما.